الدرس السابع

آفاق النعم

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤) .

آفاق النِّعم :

ثم انتقلت الآيات بنا إلى أن فتحت أمامنا آفاقَ النِّعم ، فكما قلنا سابقًا : إنَّ أحد مِحْوري السورة : الحديث عن النِّعم .

وهي تعرض الآن لنا لوحةً ، يُبيِّن الله لنا فيها عَظَائم نعمه ، وأكابر مِنَنه على خلقه ، حينما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ .

تكرار كلمة : ﴿ لَكُمُ ﴾ :

انظر إلى كلمة ﴿ لَكُمُ ﴾ ، تكرَّرت في سياق هاتين الآيتين خمس مرات .

﴿ لَكُمُ ﴾ ، الله لا يناله شيءٌ من هذا ، كلُّ هذا لكم ، اللهُ هيَّأ هذه النِّعم كلَّها من أجلكم .

خلق السماوات والأرض :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

انظر إلى هذه النِّعَم ، أوَّل هذه النِّعم : إنَّه خلق السماوات والأرض ، وخَلْقُ السماوات والأرض أعظمُ مِنْ خَلْق الناس ، ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر:٥٧) ، هذه الأجرام العظيمة : السماوات التي فوقنا ، كما يقول النبي ﷺ : « ربَّنا لك الحمد ، مِلْءَ السماوات ، وَمِلْءَ الأرض وَمِلْءَ ما شئتَ من شيء بعد »[1] ، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات:٤٧) .

هذه الأفلاك العظيمة من ملك الله ، وما يتحدَّث عنه الفلكيون : أنَّ بعض النجوم تأتينا أضواؤها بعد كذا وكذا مليون سنة ضوئية ، وبعض النجوم لم تأتنا أضواؤها إلى الآن منذ أن خُلقت !!

هذا النظامُ الكونيُّ والمَجَرَّات تُثبت أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق العظيم ، خلق الكون من الذرَّة إلى المَجَرَّة ، من أصْغر وحدة في الكون إلى أكبر وحدة في الكون ، هو خالق السماوات وما فيها من أجرام عظام ، ومن مَجَرَّات ، وخالق الأرض وما فيها وما عليها من ممالك : ممالك الحيوانات ، وممالك النباتات ، وممالك الحشرات ، وممالك الزواحف ، وممالك الأحياء المائية ، وممالك الإنسان ، وممالك الجماد ، كلُّ مملكة من هذه الأملاك فيها ما لا يُحصيها إلا الله عزَّ وجلَّ ، وكلُّ هذه الممالك في خدمة الإنسان[2] .

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦) ، وأحمد (١٩٤٠١) ، وأبو داود في الصلاة (٨٤٦) ، وابن ماجه في الصلاة (٨٧٨) ، عن عبد الله بن أبي أوفى .

(٢) وانظر ما يأتي في كلام شيخنا القرضاوي عن تسخير الكون للإنسان ، ووجوب اكتشاف القوانين الكونية وتسخيرها واستفادة المؤمنين منها صـ ٢٠٣ .

هل نزول الماء من السماء أم من السحاب ؟

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [1]

أنزل من السماء ماءً ، هو المطر ، ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أي : من السحاب . أكثر العلماء قالوا : (من السماء) ، أي من السَّحاب . لأنَّ العرب يجعلون كلَّ ما علاك فهو سماء ، كلُّ شيء أعلى منك فهو سماء ، كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الحج:١٥) ، إلى السقف ، والسبب هو الحبل ، أي : يشنق نفسه إذا لم يعجبه الحال .

فكلُّ ما علاك فهو سماء ، ولذلك قالوا : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ، أي : من السحاب .

وبعض العلماء : قالوا : لا . المطر ينزل من السماء نفسها ، ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، والإمام الرازي ردَّ على هذا القول ، بأن هذا ليس صحيحًا ؛ إنما الماءُ من السَّحاب .

---

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغُرّة التأويل) (٢/٧٦٩،٧٧٠) قوله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٣٢) وقوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ (النمل:٦٠) . للسائل أن يسأل فيقول : قال في هذه الآية الأولى : (وأنزل من السماء) وقال في الثانية : (وأنزل لكم من السماء) فما الذي أوجب (لكم) في الثانية ، ولم يوجبها في الأولى؟

والجواب : إن (لكم) في آخر الآية الأولى مذكورة لأنه قال : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ فأغنى ذكرها هناك عن ذكرها أولا . والآية الثانية لمّا لم يكن في آخرها ذكر أنه فعل ذلك لهم ، ذكر في أولها (لكم) لأن بعدها : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ وليست (لكم) في قوله : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ تكفي من ذكرها في أولها ؛ لأنها في معنًى غير معنى : خلق لكم أصناف النعم . انتهى

قال : (لأن الإنسان ربَّما كان واقفا على قُلَّة جبل عالٍ ، ويرى الغيم أسفل منه ، فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرا عليهم ، وإذا كان هذا أمرا مشاهدا بالبصر ـ وهو ما نُسمِّيه نحن التجربة ـ كان النزاع فيه باطلا)[1].

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ، وهذا المعنى ، العرب قالوه في أشعارهم قديمًا ، قالوا :

كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضل عليه لأنه من مائه[2]

البحر يمطره السحاب وما له فضل عليه ؛ لأنَّ السحاب من ماء البحر حين تبخَّر .

إخراج الثمرات رزقًا للعباد :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾

أول موضع ذكر فيها ﴿ لَّكُمْ ﴾ هذه ، ﴿ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ ، لأنه كيف يحيا الإنسان؟ كيف يعيش؟ إنه القوتُ . ـ أوَّل شيء ـ والقوت يأتي من أين؟ من الزرع .

الرزق يأتي من الزرع ، من الأرض : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ (طه:٥٣،٥٤) .

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ ، ليرزقَكُم وليقوتَكُم وليمدَّكم بالمادة الغذائية التي تحتاجون إليها .

هل يخلق الله سبحانه بأسباب وسنن ؟

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ ﴾ ، أي : بسبب هذا الماء ؛ أي : إنَّ الله جَعَل في الماء قوَّة حيويَّة

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب للرازي (٩٧/١٩) .

(٢) من شعر : البديع الإسطرلابي .

تؤثّر في خروج النبات ، وهذا هو القولُ الصحيح : أنَّ الله يخلق بالأسباب ، ربُّنا يخلق الأشياء بأسباب ـ بسُنن ـ بعض العلماء يقول : لا . أي : خلق عندها ، وليس بها .

الله سبحانه قال ﴿ بِهِ ﴾ ، ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ (الأعراف:٥٧) الباء هذه للاستعانة ـ يُستعان بها كسبب ـ ولا مانع من أن يخلق الله تعالى بالأسباب ، بأن يُودِعَ في الأشياء قوَّة ، يودعها الله فيها .

القوة المُودَعة :

كما قالوا : إنَّ الله أوْدَعَ في الماء قوَّةً ليروي ، وأودع في السكِّين قوَّةً لتقطع ، وأودع في النَّار قوَّةً لتُحرق ، وهذا هو مذهب السَّلف .

إنكار هذا في الحقيقة ـ كما قال الإمام الآلوسي ـ ضَرْبٌ من الجنون ، لأنَّ بعض الناس يقول : من أثبت شيئًا كهذا فهو للكفر أقرب منه إلى الإيمان .

علَّق على ذلك المفسِّر الكبير الإمام الآلوسي فقال : (ومعنى كون الإخراج بسببه : أن الله تعالى أودع فيه قوَّة مؤثرة بإذنه في ذلك ، حسبما جرت به حكمته الباهرة ، مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج ، وهذا هو رأي السلف الذي رجع إليه الأشعري ، كما حُقِّق في موضعه .

وزعم مَن زعم أن المراد أخرج عنده ، والتزموا هذا التأويل في ألوف من المواضع ، وضلَّلوا القائلين بأن الله تعالى أودع في بعض الأشياء قوَّة مؤثِّرة في شيء ما ، حتى قالوا : إنهم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان .

وأولئك عندي أقرب إلى الجنون وسفاهة الرأي)[1].

---

(١) انظر : روح المعاني (١٦/٢٠٦) .

في بعض المنظومات ـ قديمًا ـ في علم التوحيد يقول الشيخ أحمد الدردير في خريدته :

ومَـــنْ يقـــل بـــالطبع أو بالعلَّـــة فـــذاك كفـــرٌ عنـــد أهـــل الملَّـــة
ومَـــنْ يقـــل بـــالقوَّة المُودَعـــةِ فـــذاك بِـــدْعيٌّ فـــلا تلتفـــتِ

الذي يقول : الأشياء تعمل بطبعها ، أو بالعلَّة خارج الألوهيَّة ؛ هذا كفر ، أما الذي يقول بالقوَّة المُودَعة ، وأنَّ الله جعل في الشيء قوَّة مُودَعة تؤثِّر فيه ، ما المانع من هذا؟ يقال : هذا بدعيٌّ !

وهذا في الحقيقة كما قال الآلوسي : ضربٌ من الجنون .

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ ، أخرج من الماء النازل من السماء ـ أي السحاب كما قال الرازي ـ أخرج به من الثمرات رزقًا لكم .

تسخير السفن في البحار :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾

البحار العظيمة ، نحن نعلم أنَّ حوالي أربعة أخماس الأرض التي نعيش عليها محيطات وبحار وأنهار ، هذا الكوكب أربعة أخماسه مياه ، والخُمُس يابسة ، هذه البحار سخَّرها الله للإنسان ، كما قال في سورة النحل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤) .

هنا اهتمَّ بعملية ذكر الفلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ (لقمان:٣١) ، كيف للبحر أن يحمل الفلك ؟

لو رمَيْتَ مسمارًا صغيرًا في البحر ينزل في قاع البحر ، لكنَّ البواخر على ضخامتها تَطْفو على وَجْه الماء ، كما قال سبحانه وتعالى عن تلك السفن العظيمة : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الشورى:٣٢) .

السُّفُن هذه كالأعلام ، كالجبال ، وكأنَّ القرآن كان يتحدَّث عن عصرنا ، البواخر كالمدن العائمة ، هذه حاملة الطائرات وحاملة آدميين . . كلُّ هذا وهي تجري في البحر بأمر الله ، بتسخير الله ، بإذن الله ، بمشيئة الله ، بالسُّنن والقوانين التي وضعها الله . لولا هذه القوانين لما استطاع الماء أن يحمل هذا الكيان الكبير ، ولكن وَفْق قوانين درسناها في علم الأحياء والطبيعة ـ قاعدة (أرشميدس) ـ وبمعرفة هذه القوانين استطاعوا أن يُنشئوا هذه السفن ، التي هي في البحر كالأعلام : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الرحمن:٢٤) .

﴿ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ : تنقل الناس ، وتنقل البضائع من بلد إلى بلد ﴿ بِأَمْرِهِۦ ﴾ بإذنه ومشيئته ، وهذه الظاهرة في بلاد الخليج واضحةٌ ، تأتي لنا في أيام الشتاء فاكهة الصيف من أستراليا ومن جنوب إفريقيا وبالعكس ، كيف تأتي هذه الأشياء؟ كيف تأتي الفواكه ؟ كيف تأتي اللحوم ؟ من بلاد شتَّى . تأتي عن طريق البواخر ـ عن طريق الفلك ـ التي تجري في البحر بما ينفع الناس ؛ لأنَّ هذه البضائع الضخمة والكثيرة لا تحملها الطائرات ، ولو حملتها الطائرات لكانت أثمانها مُضَاعَفة ، فالتي تحملها في الحقيقة هي الفلك التي تجري في البحر بنعمة الله ليرِيَنا من آياته .

تسخير الأنهار :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾

المياه العذبة نوعان : نوع ينزل من السماء ، وهو ماء المطر ، ونوع آخر يجري

في الأرض ، وهو ماء الأنهار . وقد يكون ماء الأنهار من الأمطار أيضًا ، ولكن يتجمَّع في هذه المسارات ، وهذه المجريات ، فينتقل من بلد إلى بلد .

انظر مثلاً نهر النيل : ينابيعه إما في الحبشة وإما في أوغندا ، منطقة البُحيرات الكبرى ، تأتي هذه المياه من أواسط إفريقيا ، تأتي وتمرُّ على بلاد شتَّى على الكونغو وعلى السودان ، لتصل إلى الناس في القاهرة . مَن الذي سخَّر هذه الأنهار؟ وسيَّرها من مكان إلى مكان ؟!

هي تنبع في بلد وتصل إلى بلاد أخرى ، الذي سخَّرها هو اللهُ ، وسخَّر الماء العَذْب ليشربَ منه الإنسان ويرتوي ، وتشربَ منه الأنعام ، وتُسْقَى منه الزروع ، ويستعمله الناس في النظافة ، ويستعملونه في أشياء كثيرة ، فالماء هو الحياة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) .

وهذه المياهُ هي النعمة العظيمة .

في عصرنا يُخوِّفوننا ، ويقولون : الحروب القادمة ستكون من أجل المياه ، من أجل شُحِّ المياه ، قطرة الماء هذه نعمة عظيمة ، الله هو الذي سخَّر هذه المياه .

أنزلها من السماء وأجرى بها الأنهار .

تسخير الشمس والقمر دائبين :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾

الشمس والقمر في السماء ، ونحن لا ننتفع بهما مباشرة كما ننتفع بالماء أو الفُلك ، نحن ننتفع بآثارهما .

الشمس ، هذا النَّجم العظيم بحرارته العظيمة بأشعَّته هو الذي يُعطينا الحرارة ، يُعطينا الضوء ، لولا حرارة الشمس ، ولولا نور القمر ما قامت الحياة .

الله الذي خلق الشمس والقمر ، ووضعهما في الموضع الذي ينفع ولا يضر ، ويحيي ولا يميت .

تقديرُ الله سبحانه :

علماء الطبيعة والفيزياء والفلك يقولون : إنَّ الشمس لو كانت أكبر ممَّا هي عليه ما بقيت الحياة على الأرض! الحياة لا تحتمل أشعة أكثر من هذه ، ولو كانت أقلَّ ممَّا هي عليه لا تقوم الحياة على الأرض ، لو كانت تدور بسرعة أكبر من السرعة التي تدور بها ما انتفعت الأرض بأشعَّتها ، لو كانت تدور بسرعة أبطأ لتَسلَّطت عليها أشعة الشمس فأحرقتِ الأحياء على الأرض ، والجانب الآخر منها تموت من البرد ، من الصقيع .

السرعة التي تدورُ بها الأرض حول نفسها ـ أي حول الشمس ـ والتي تدور بها الشمس ؛ هذه السرعة ، هذا الحد ، هذا الكم كلٌّ مُقَدَّر : ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ** ﴾ (الرعد:٨) ، ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢) .

لا تظنّ أنَّ الأمر فوضى ، لا : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (القمر:٤٩) ، الماء الذي ينزل في الأرض ينزل بقدر : ﴿ **فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٨) .

فالشمسُ والقمرُ وضَعَهُما الله وضعًا مُعيَّنًا لكي يخدم الحياة على الأرض ، حياة الإنسان .

لو أنَّ القمر ليس بهذا الوضع لحصل خَلَل في مسألة المدِّ والجزر القمري ، لو أنَّ هذا المدَّ يَسْري باستمرار لجعل البحر يموجُ ويغرق الناس .

أحيانًا تسمع البعض يقول : غضب الطبيعة ! الطبيعة لا تغضب ، الطبيعة مُسيَّرة ، عندما تقوم الأعاصير ـ تسونامي وغيرها ـ حينما تهيج البحار ، الله هو الذي يُسيِّر

هذه الأشياء بقدر من عنده : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩) ، ولذلك سخَّر لنا الشمس والقمر بعلمه وبمشيئته دائبَيْن متتابعَيْن في خدمة الحياة على هذه الأرض ، وذلك من فَضْل الله تعالى وتقديره وحكمته وعلمه جلَّ شأنه .

عناية القرآن بالشمس والقمر دون غيرهما من الكواكب :

السماء فيها نجوم كثيرة ، وفيها كواكب شتَّى ، ولكنَّ القرآن يُعنى دائمًا بالشمس والقمر لصلتهما المباشرة بالحياة على ظهر الأرض ، خصوصًا حياة الإنسان .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ ، لأنَّ الشمس والقمر أحسَّ الناس من قديم أنهما نافعان للناس ، لذا عَبَد بعضُ الناس الشمس والقمر ، كما ذكر الهدهد لسليمان عن قوم سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (النمل:٢٤) ، ولكن في الحقيقة الشمس والقمر مُسخَّران من قِبَل الله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴾ ، فكيف يعبد الإنسانُ المسَخَّر ، ولا يعبد المُسَخِّر؟! هذا من غفلة الإنسان ومن جهل الإنسان!!

تسخير الليل والنهار :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

الزمن سخَّره الله للإنسان ، كما يحتاج الإنسان إلى المكان ليعمل فيه ، كذلك يحتاج إلى الزمان ـ الليل والنهار ـ لأنَّ الإنسان لا بد أن يعمل في مكان ، ولابد أن يعمل في زمان ، والزمان يعبَّر عنه بالليل والنهار ، يقال : الليل والنهار ؛ لأن الله نوَّع الزمن جعل بعضه ليلاً وبعضه نهارًا : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ:١٠،١١) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧١-٧٣) ، تسكنون في الليل ، وتبتغون من فضله في النهار ، ولعلكم تشكرون .

فاللهُ هو الذي خلق الليل والنهار : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (الأعراف: ٥٤) ، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠) .

تسخير الكون للإنسان ووجوب استفادة المؤمنين من هذا التسخير :

القرآن يؤكِّد على هذه النِّعم كلِّها بهذه العبارة : ﴿ لَكُمُ ﴾ ، ليعلم الناس أنَّ هذه الأشياء مُسخَّرة لهم ، وليعلم أهلُ الإيمان أنَّ هذه الأشياء مُسخَّرة لهم ، وليست مُسخَّرة للأوروبيين ولا للأمريكان وحدهم ، فيبدعون هذه الأشياء ، يُسخِّرون الطاقات ، ويكتشفون القوانين الكونيَّة ، وهم بمعزل عن هذا ، كأن كلمة ﴿ لَكُمُ ﴾ ، ليست لهم . لا ، هذه لنا ، فلذلك ينبغي أن نستفيد من الطاقات التي بثَّها الله في الكون .

ومن شكر النعم التي أنعم الله بها علينا في هذا العالم : أن نستخدمها ولا نهملها ولا نَدَع غيرنا يستعملونها ، ونبقى نحن عالة عليهم ، نستورد ولا نصدِّر ، ونقلِّد ولا نبتكر ، ونستقبل ولا نرسل ، لا ، ﴿ لَكُمُ ﴾ ، يجب أن نعلم أنَّ ﴿ لَكُمُ ﴾ ، خطاب للإنسان ، أول هذا الخطاب للمؤمنين من بني الإنسان ، ﴿ لَكُمُ ﴾ ، هم الذين ينبغي أن يستفيدوا من هذه النعم قبل غيرهم .

إجابة السؤال بلسان المَقَال أو الحال :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾

آتاكم من النِّعم التي تسألون الله إيَّاها ، تسألونه بلسان المقال أو تسألونه بلسان الحال ، ليس من الضروريِّ أن تطلبوها بألسنتكم ، ولكن حاجاتكم إليها هي كأنما سألتم الله ، فيعطيكم الله من غير ما تسألوه بألسنتكم ، يعطيكم من النِّعم ما لا تطلبونه بمقالكم ولكن تطلبونه بحالكم ، الله يعطي بغير سؤال وبغير حساب : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ .

كَثْرَةُ النِّعم :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

نِعَم الله نِعَمٌ ماديَّة ، نِعَمٌ معنويَّة ، نِعَمٌ رُوحيَّة ، نِعَمٌ أخلاقيَّة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ، بحيث لو حاولتم أن تعدُّوها لا يمكن إحصاؤها ، لا تطيقون حصرها ، تعزُّ عن الإحصاء .

والإحصاء : الضبط بالعدد . كان العرب يحصوا بالحصى - يعدُّوا بالحصى - فَسُمِّي الإحصاء بهذا .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ، يعزُّ عليكم ، ويثقُل عليكم ، وتعجزون عن إحصائها ؛ لأنها ليست نعمة ولا عشرة ولا مائة ولا ألفًا ولا ألفين ولا مليونًا .. نعم لا تُعَدُّ ولا تُحصى ، وكلُّ نعمة فيها آلاف النعم .

لا تقل : نعمة ماذا؟ هناك نعمة الصحة ، نعمة العقل ، نعمة المال ، نعمة الأولاد ، نعمة العلم ، نعمة الذكاء . . كلُّ النعم ، نِعَم عظيمة جدًّا ، وإن كان الإنسان لا يعرف قيمتها ، بعض الناس يشتكي من الفقر ، وأنه ليس عنده شيء ، وكأنما

يسخط على الله سبحانه ، وعلى القدر ، فبعض العلماء قال له : تعال ، أأنت تقول : ليس عندك شيء؟ قال : نعم ، لا أملك شيئًا .

قال : أتودُّ أن تُؤْخذ عَيْناك وتُعطى مائة ألف ؟ قال : لا . مائتي ألف ؟ قال : لا . خمسمائة ألف؟ قال : لا ، ألف ألف؟ قال : لا . لو أُخذت عيناك الاثنتان؟ إذن نأخذ سمعك بكم؟ مائة ألف ، مائتي ألف . . فقعد يقول : السمع . . البصر . . والحواس الخمس ، واليد والرِّجل . . .) قال : أنت إذن عندك كنوز من النِّعم بآلاف الآلاف ، وأنت لا تدري .

معرفة النِّعمة عند فَقْدها :

كلُّ واحد عنده من النِّعم التي لا يحسُّها ، متى يعرفها؟ إذا فقدها ، يعرف النعمة عندما يفقدها ، كما يقولون : الصحَّة تاجٌ على رؤوس الأصحَّاء لا يراه إلا المرضى . لا يعرف قيمة الصحَّة إلا المريض ، الصحَّة هذه كأنها تاج ، يعني يتوَّج به الملوك ، إن الذي يرى هذا التاج هو المريض ، الصحيح لا يعرفه .

نعمة اللقمة :

نِعَمُ الله كثيرة ، لو أخذت نعمة اللقمة التي تأكلها ، هذه اللقمة أولاً كيف تأكلها؟ الله أعطاك الأسنان لتمضغ هذه اللقمة ، ووضع الأسنان وضعًا معيَّنًا بحيث تساعد على المضغ ، يوجد ناب وضرس وهكذا ، وبعد أن تمضغها تبلعها ، يوجد المريء والحلقوم ، وبعد ذلك أين تذهب؟ تذهب إلى المعدة ، هذه المعدة التي كتب أحد العلماء عنها : أنها أعظم مصنع كيماوي في العالم . انظر ماذا تضع فيها؟ لحوم وبروتينات وسكريات ونشويات ، وأشياء صلبة وأشياء مائعة ، وخليط من هذا وهذا ، هل تتفكر كيف تعمل؟ هل أنت تشغِّلها؟ هي تعمل وحدها ، هذا المصنع الذي يعمل باستمرار يحوِّل هذه الأشياء إلى عجينة ، وإلى مادة أخرى .

وبعد ذلك يتمُّ تحويلها ، هذا إلى الأمعاء الدقيقة ، وهذا يذهب إلى الأمعاء الغليظة ، وهذا يذهب إلى كذا ، انظر لهذه النِّعمة ـ الجهاز الهضمي ـ لو تعطَّل هذا الجهاز كم تكون البلوى !!

هذه اللقمة جاءت من رغيف ملفوف بورق السلفان ، وجاء لك من المخبز ، هذا المخبز الذي يخبز لك هذا الرغيف ، أناس يعملون فيه ، بعضهم من العرب ، وبعضهم من العجم ، وبعضهم جاءوا من إفريقيا ، وآخرون من آسيا ، جاءوا من بلاد الدنيا لأجل أن يعملوا لك هذه اللقمة ، والفرن الذي يخبز هذا الرغيف ، الله أعلم جاء من أين ، أجاء من أوروبا ، أم جاء من اليابان ، أم من كوريا ؟ والدقيق ـ الطحين المخبوز ـ جاء من أين؟ من أستراليا أم أين؟ وحملته الفُلك التي تجري في البحر ، والناس الذين يعملون في هذا القمح ، لو حسبتَ اللقمة هذه كم اشتغل فيها من أناس حتى أتتك !!

أناس زرعوها في الأرض ، أي : إنه لا بد من فلاح عمل من أجل أن يزرع الأرض بمحراث آليٍّ كهربائي ، أو بمحراث عادي تجرُّه الأبقار ، يعني اشتغل الناس من أنحاء مختلفة من العالم من أجل هذه اللقمة التي وصلت إليك ، وأنت تأكلها فقط! آلاف مؤلفة من الناس اشتغلوا فيها حتى وصلت إليك ، وأنت تأكلها ، ولم تمر تلك الحقائق في دماغك .

ذكر الإمام الغزالي أن عابدًا دعا بعض إخوانه فقرَّب إليه رغفانًا ، فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها ، فقال له العابد : مه ، أيُّ شيء تصنع ، أما علمتَ أن في الرغيف الذي رغبتَ عنه كذا وكذا حكمة ، وعمل فيه كذا وكذا صانعًا ، حتى استدار من السحاب الذي يحمل الماء ، والماء الذي يسقي الأرض ، والرياح والأرض والبهائم وبني آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به[1] .

---

(١) انظر : الإحياء (٣/٩٤) .

الإمام الغزالي يضيف إلى ذلك فيقول[1]: كم من الملائكة اشتغلوا في هذه الأشياء ـ الحاجات التي لا تراها ، الأشياء الأخرى ـ الله هو الذي سخَّر هذا ، سخَّر الرياح لتُجري الفلك ، وسخَّر البحار ، وسخَّر الأنهار ، وسخَّر الماء ؛ كلُّ هذا من أجل أن تأتيك اللقمة ، حتى تعرفَ نعمةَ الله عليك ، حينما تأكل وتشبع وتقول : الحمد لله ، تحسُّ بأنَّ هذا الحمد صادرٌ عن شعور بنعمة ، بل بنعم عظيمة ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

عجز الإنسان عن الشكر :

النِّعم عظيمة ، والنِّعم كثيرة ، والنِّعم أكثر من أن تُعدَّ ، وأكثر من أن تُحصى ، ولكنَّ الإنسان لا يقوم بشكرها ، مع أنه كما قال بعض السلف : الله أعطى من النعم على قدره ، وكلَّفنا من الشكر على قدرنا ـ على قدر حالنا ـ وليس على قدر النعمة . لا يقدر أحدنا أن يقوم بالشكر لله سبحانه على قدر النعمة ، حتى ولو شكرتَ ؛ لأنَّ هذا الشكر نعمة من الله عليك ، كونه وفَّقك للشكر على النعمة هذه نعمة أخرى ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الآمال واتَّسع العمر[2]

لا يستطيع الإنسان أن يفي شكر الله مهما طال أجله ، واتَّسع عمره .

الإنسان ظلوم كفَّار :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

يظلم نفسه ، ويظلم النعمة التي أُوتيها ، ويضعُ النعمة في غير موضعها ، لا يستعملها فيما يُحبُّه الله سبحانه ، بل يستعملها فيما يُغْضِبُ الله ، وفيما يُؤذي

---

(١) انظر : الإحياء (٣/٩٤) .

(٢) من شعر : محمود الوراق .

الناس ، هذا هو الظلم ، ظلمُ الإنسان لنفسه ، الإنسانُ ظلومٌ وكفَّار ، يكفر بنعمة الله ، لا يقابل النِّعمة بالشكران ، ولكن يقابلها بالكفران للأسف الشديد .

طبيعة الإنسان :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ، هل هذا الإنسان هو الكافر؟ أو الإنسان من حيث هو إنسان؟

بعض المفسِّرين يقول : هذا الإنسان غير المؤمن ، ولكنَّ الراجح أنه الإنسان بطبيعته ، لأن (أل) هنا للجنس ، الإنسان من حيث هو إنسان ، إذا تُرِك لطبيعته البشريَّة ظلم وكفر بالنعمة : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ (العاديات:٦) ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:٧٢) ، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ (الكهف:٥٤) .

هذه هي طبيعة الإنسان ، فالذي يسمُو بالإنسان ، ويرقى بالإنسان ، ويُزكِّي نفس الإنسان هو الإيمان ، فالإنسان بالتزكية يرتقي : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٧-١٠). هذه هي النِّعم التي أنعم الله بها على الإنسان .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا أهلاً لشكرها ، وأن يجعلنا من الذين يشكرون نعمه فيستحقون المزيد منها ، ويستحقُّون حفظ هذه النعمة .

* * *